الثورة والانموذج الجديد

بقلم غالب هلسا

في مقال سابق حاولنا ان نحدد الملامح العامة للانموذج الذي خلقته الثورة المصرية وان نشرح الظروف التي ادت الى خلقه وابرازه. ويمكن ان نلخص ما قلناه حول هذا الموضوع ان ايديولوجيته هي ايديولوجية البورجوازي الصغير الذي يعتقد ان العمل من اجل المصلحة الخاصة دون قيود او مراعاة للاخرين هو يد الله الخفية التي تحقق الرخاء والتقدم ، وان المجتمع الصحي هو ذلك الذي يدعو الى العودة للنظام الطبيعي . وهذا معناه – في هذه الحالة – وضع اخلاقيات ومثل البورجوازي الصغير غرائز حيوية يؤدي تجاهلها الى هدم البنيان الاجتماعي .

كما قلنا ايضا ان افكار هـذا الانموذج هـي بعث لايديولوجية البورجوازية الكلاسيكية . كمـا اشرنا الـى ان تطلعات هـذا الانموذج اصبحت تتعارض مع مسار الثورة لتعارض مصلحته مع قيام ملكيةعامة.

***

ان ضرورة وجود انموذج ثوري تنبع من دينامية الظروف الجديدة، اي ان المجتمع قد انتظم بطريقة جعلت وجود الثوري وبالتالي قيام تنظيم سياسي امرا لا يمكن تأجيله . فخطر سيطرة اليمين السياسي وتزايد قوة الطبقات العليا وسيطرتها قائم فـي حالـة استمرار غياب قوى الشعب الحقيقية عن المسرح السياسي .

ان اختفاء التنظيم السياسي القائد قد ادى الى ظواهر خطيرة، نقتصر على ذكر ثلاثة منها : ١ – اتجاه طاقات التجمع الشعبي الى مسارب ضارة . ٢ – نشوء فوضى فكرية تضيع في وسطها معالم النظرية الثورية . ٣ – بروز اتجاهات يمينية تهدف الى تجميد الثورة وعزلها .

بالنسبة للنقطة الاولى ، يكفي ان نراقب الحماس الضخموالاهتمام الكبير الذي تثيره كرة القدم . ان اقل مبارياتها عبارة عن مهرجان شعبي هائل ، والحماس لها يفوق كثيرا الحماس الذي يمكن ان تثيره اكبر المعارك السياسية او الاجتماعية . كما تخصص لها الصحفاليومية عددا من صفحاتها وملاحق اسبوعية خاصة .

ومن الغريب ان الكتاب اليساريين قد شاركوا بفعالية كبيرة في تأجيج هذا الحماس . فمنذ وقت قريب اصدرت مجلة اخر ساعة التي يرأس تحريرها الكاتب اليساري صلاح حافظ ويعمل فيها كثير من اليساريين عددا خاصا عن كرة القدم .

افتتح صلاح حافظ العدد بقوله ان الحماس للكرة ظاهرة صحية ومأثرة من مآثر الثورة التي يجب ان نفخر بها . فالتحمس للكرة يشجع في العادة ناديا معينا مشتركا في ذلك مع عشرات الالاف من المشجعين. وذلك خير من التحمس للاب او العائلة او حتى القرية . اي بكلمة اخرى ، فانه كلما ازداد عدد المتحمسين لشيء مـا ، ازدادت الصفـة التقدمية لمثل هذا الحماس .

وهكذا فلا خيار للشباب في مجتمع اشتراكي بين الحماس للكرة او الحماس لافراد العائلة . ان المسالة لتبدو مفجعة حقا عندم انتذكر ان ذلك يحدث في بلد يبني نفسه ويحتاج الى كل قدراته لمجرد توفير المطالب الضرورية للشعب وهو في الوقت ذاته يواجه تحديات ضخمة في الداخل والخارج ، وان يكون مثل هذا التركيز على تسلية لا يمكن ان تشارك في حل مشكلاته الاقتصادية ولا تنمية قدراته العقلية بل تحيله الى مجرد تفاهة .

يضاف الى ذلك الاهتمام العجيب بام كلثوم الذي لا يدعمه اي سند من الفن او الذوق الجمالي . وقد قامت اخر ساعة ببذل جهود كبيرة في تأكيد موضة ام كلثوم . فقبل ان تصدر عددا خاصا عنها اخذت تعد قراءها بمفاجأة مذهلة ، حدث لا يمكن تصديقه الخ... ثم اتت المفاجأة .. لقد ظل مراسلها – كما تقول المجلة – ليل نهار ولمدة اربعة اشهر يترصد ام كلثوم لينال حديثا منها . وقد كان . اذ اقنعها بانه يحمل رسالة لها من مهندس ايطالي . وتمت المقابلة في جو من الفزع والرعب ، اذ كان المراسل ينتظر في كل لحظة ان تطلق ام كلثوم كلابها المدربة عليه فتنهش احشاءه وتمزقه اربا .

وبعد هذه المجهودات المضنية وجه اليها اسئلة مثل هل ترغب في تحويل بيتها الى متحف ؟ فردت انها لا ترغب في ذلك ، وعن رأيها في الشعر الجديد فردت انها تستطيع – لو ارادت – ان تؤلف خيرا منه. واسئلة اخرى من هذا المستوى .

اما الظاهرة الثانية وهي انتشار الفوضى الفكرية فيكفي ان نلاحظ انه في فترة من الفترات كانت مجلات وزارة الثقافة تشن هجوما متصلا على الفكر الاشتراكي وعلى مشروعات الحكومة لتحديد النسل مثلا . ورافق ذلك هجوم على كل محاولة للتفاعل مـع الفكر العالمي ، ويكفينا هنا ان نستشهد ببيان لجنة الشعر التي اصدرت تحريما لكل شعر يستفيد من الاشكال الفنية الاجنبية او التعبيرات المسيحية الخ ... بل وصل الحد الى محاربة الفكرة العربية على اعتبار انها نتيجة لمخطط استعماري للقضاء على الخلافة التركية .

يرافق هذا اجتهادات غريبة في تفسير الاشتراكيةالعربيةواعتبارها امتدادا للفكر البراجماتي ، اي الفلسفة الرسمية للرأسمالية الغربية، وان الميثاق عندما يعلن عن ضرورة اثراء النظرية بالممارسة العملية وعن ضرورة الاسترشاد بالنظرية عند الممارسة فالميثاق يضع الاشتراكية العربية في موضع الرفض النهائي للفلسفة الماركسية .

ويرى الدكتور زكي نجيب محمود ، رئيس تحرير مجلة الفكر المعاصر ، ان خطيئة الماركسية الكبرى هو اعتقادها ان الالات تفرز الافكار تلقائيا . ثم يتساءل : ماذا يحدث لو قامت حرب ذرية فافنت العلماء والفنيين وكتب العلم ؟ ويجيب : ستنتهي الحضارة بدون شك. وبهذا الاسلوب البسيط يقنعنا الدكتور زكي نجيب محمود بخطأ الماركسية . اما كيف توصل الدكتور الى اعتبار ان فكرة ماركس عن الاساس الاقتصادي تعني ان الالات هي التي تفرز جميع الافكار فذلك امر ما زال في طي الكتمان . يضاف الى هذا ، ان فكرة الحتمية الماركسية كما عرضها الدكتور هي الفكرة نفسها التي خاض ضدها ماركس واحدة من اعنف معاركه ونعني بها هجومه على مادية فيورباخ. كما ان القضية الاساسية التي كان يختلف فيها لينين مع المنشفيكهي اصرار لينين على ان الحتمية التاريخية لا تتحقق تلقائيا بل من خلال وعي الانسان وارادته . وهذا هو موضوع كتابه « ما العمل ؟ » .

وعلى كل فربما كان الدكتور يتكلم عن ماركسية اخرى لم نعرفها بعد وهو الذي امضى ما ينيف على اربعين عاما في دراسة الفلسفة وفي البحث عن مجاهلها العويصة الغامضة ...

واذا انتقلنا الى النقطة الثالثة وهي محاولة اليمين – سواء بحسن او سوء نية – عزل الثورة وتجميدها فاننا نلاحظ ان ذلك يتم من خلال تحمس فائق للوضع وللثورة . ان الهدف وراء ذلك هو تحويل فكرة

الاشتراكية الى قشرة خارجية خالية من كل مضمون حقيقي حتى تصبح في النهاية اداة في يد الرجعية . ويتضح ذلك في محاولة سلب الثورة اقوى اسلحتها مثل كونها صديقة للاشتراكية العالمية ، واتجاهها العربي وتضامنها مع الدول الافريقية الاسيوية ودول اميركا اللاتينية، ومناصرتها لحركات التحرير .

ومن الامور ذات الدلالة ان هذا الاتجاه لا يجد وسيلة يتكيء عليها سوى الخداع والنفاق . فالهجوم على اتجاه مصر العربي يتستر وراء الدعوة التالية : ان الصعوبات التي تواجهها مصر نتيجة للخطةالاقتصادية للتنمية ولتوسيع قطاعات الخدمات والتأمينات والعمالة وبسبب عدم كفاءة بعض الاجهزة التنفيذية ، تعزى هذه المصاعب الى اتجاه مصر العربي . اي ان الهجوم على الاتجاه العربي يهدف الى حماية الشكل البيروقراطي للحكم ومحاربة الديمقراطية في مجالاتها الاقتصادية والاجتماعية والسياسية .

كما تبدو اتجاهات اخرى في المستوى نفسه من الخداع كوضع الاتجاه العربي ضد الفكر الاسلامي ، واختلاق تعارض مفتعل بين فكرة عدم الانحياز وفكرة التضامن الاسيوي الافريقي ، والدعوة الى عزلة مصر عن الكفاح العربي والافريقي باظهار التحمس لعراقة الحضارة المصرية الخ...

ان هذا يتطلب تحديدا وحسما . ولكن هل يكون ذلك باسكات جميع الاصوات المعارضة ؟

اعتقد ان علينا في مواجهة اليمين ان نفرق بين امرين :

الاول : ان الجمهورية العربية المتحدة قد اختارت طريق البناء الاشتراكي في الداخل وسياستها المعروفة في الخارج . وهذا الاختيار مدعم بتعبيره عن مصالح الشعب الحقيقية وبقوة الدولة . ولذا تصبح اية محاولة من جانب الرجعية لاستعمال العنف في تغيير الوضع امرا يجب ان يقاوم باقصى العنف والحزم . ان بعض عناصر اليمينستحاول باستمرار تنفيذ مآربها من خلال الاتصال بالمستعمرين والتآمر معهم او باللجوء الى الارهاب ، وهذا امر يجب ان تستعمل فيه الشدة .

الثاني : ان الفكر اليميني ليس مجرد موقف تتخذه الفئات الرجعية للدفاع عن مصالحها وانما ايديولوجية توجد اثارها بين كل فئات الشعب وطبقاته . وتستمد هذه الايديولوجية غذاءها من انخفاض مستو ىالوعي السياسي ، تراث التخلف الطويل ، الانتاج الحرفي والملكية الصغيرة ، تدني المستوى الثقافي ، حداثة الاسلوب العلمي الخ... كما تتغذى هذه الايديولوجية ببعض الظواهر الجديدة كالمصاعب التي تنشأ كنتيجة للتحول والتطور السريعين وما يؤدي اليه ذلك من قلق نفسي ، عدم التوافق ـ في كثير من الاحيان ـ بين سياسةالحكومة وبين التطبيق الذي يتم من خلال اجهزة لم تتكيف بعد للظروف الجديدة، خروج المرأة الى العمل ، الخ... واثار هذهالظواهر تكاد تشملالجميع. فلهذا يصبح استعمال العنف ضد الفكر اليميني مساويا للقيام بحملة قمع رهيبة ضد اوسع جماهير الشعب بلا مبرر .

ولكن محاربة فكر اليمين يظلهدفا لا لعزله فكريا وسياسيا فحسب بل لان ذلك جزء اصيل وهام من مهمة نشر الوعي الاشتراكي ومناعطاء الاشتراكية طابعها الخاص والمميز في بلد مثل الجمهورية العربية المتحدة . ان التوعية الاشتراكية ليست مواعظ تلقى ولكنها تتم من خلال ادخالها كعنصر اساسي في كفاح الجماهير اليومي ، ومن اجل الديموقراطية باوسع اشكالها والتصنيع . وبمعنى اخر يجب ان تنشر التوعية الاشتراكية من خلال التجربة اليومية للشعب .

وبجانب نشر الوعي الاشتراكي من خلال المواجهة المستمرة لمشكلات الحياة اليومية ومن خلال ربط المظاهر الصغيرة والمنعزلة لقضايا المجتمع الكبرى ، بجانب هذا يجب ان يكون للاشتراكية فكرها المميز الذي يستطيع ان يكشف كل انحراف على المستويين النظري والعملي ويقدمه من خلال الاقناع والتوعية .

ان ذلك مستحيل دون قيام تنظيم سياسي ثوري .

ولكن ما هو هذا التنظيم ، ما هو دوره وحدوده ، وما هي علاقته بالسلطة التنفيذية ؟

عندما تطرح مشكلة الكيفية التي ينبغياتباعها لتكوين تنظيمسياسي واختيار ملاكات قيادية فان التأكيد يتركز على فكرتين رئيسيتين:الاولى، ان تسلم قوة عسكرية للحكم دون الارتباط بحزب سياسي يجعل اختيار القيادات الثورية شديد الصعوبة ، اذ يصعب التمييز بين الثوريين الحقيقيين وبين الانتهازيين ما دام ادعاء الثورية تجارة مربحة.والثانية عدم الفصل بين مفهوم التنظيم السياسي وبين المسؤولية التنفيذية ، فيصبح معنى الحاجة الى تنظيم سياسي مساويا لمعنى الاحتياج الى موظفين نزهاء .

بالنسبة للنقطة الاولى ، ان وضع المسألة بهذا الشكل ليس نهائيا . فتسلم حزب ثوري للسلطة ليس ضمانة كافية لاستمرار وضع ثوري . وبامكاننا ان نعدد الكثير من الامثلة حيث تسلمت السلطة احزابا وطنية او ثورية ثم تحولت الى بيروقراطية تكبح جماح كل تقدم. كما انه يمكن ان نشهد تكون قوى ثورية تخلقها او تتبناها السلطة القائمة . فيحدث مثلا ان تتولى الحكم سلطة وطنية فتواجه صراعا اجتماعيا وسياسيا في الداخل بين مختلف القوى ومن خلال اتخاذها احد جوانب هذا الصراع تتحدد صفتها المستقبلة ، فاما ان تنحاز الى جانب التقدم او تنحاز الى جانب الرجعية .

اما فيما يتعلق بالنقطة الاخرى ، اي عدم الفصل بين مهمة التنظيم السياسي والموظف النزيه ، فهذا يتطلب شرح الاسس التي تقوم عليها العلاقة بين الحزب الثوري والحكومة الثورية مستفيدين في ذلك من تجارب البلدان الاخرى .

بامكاننا ان نلاحظ ، بعد مراجعة العديد من تجارب البلدان الاخرى ، انه عندما يتحول الحزب الثوري الى حكومة ثورية فان الاثنين يسيران في اتجاه فقدان ثوريتهما . اي انه عندما تتحول الاجهزة السياسية الى اجهزة وظيفية ويتركز دور التنظيم السياسي في ادارة شؤون الدولة فانه يفقد قدرته على النظرة الشاملة . كما تتحول صلته بالجماهير من ارتباط مباشر متفاعل الى اخر يقوم على الالزام والقسر بواسطة أجهزة السلطة التنفيذية . وبهذا تنتهي اهم علاقة بين القيادة السياسية والشعب ، ونعني بها حرية الاختيار التي جعلت الجماهير الشعبية تسير طوعا وراء القيادة السياسية وتدعمها ، وتستبدل ذلك بعلاقة تقوم على قوة القانون . وهذا يجعل الامور تسير في الظاهر بيسر وسهولة . الا انه مع مضي الزمن تحدث جفوة بين الجماهير والقيادة السياسية ،تؤدي بدورها الى اللامبالاة واختفاء المبادرة والحماس بين صفوف الشعوب ، فتجد السلطة نفسها مضطرة ازاء هذا الى الاستعاضة باسلوب الاغراء المادي والاثارة المفتعلة من ناحية والى تضخيم وتوسيع جهاز الدولة القمعي والمراقب الى اقصى حد من ناحية اخرى .

ما هو اثر مثل هذا الوضع على السلطة التنفيذية ؟ ان الاجهزة الحكومية تفقد قدرا كبيرا من كفاءتها . ويصبح الماضي السياسي جواز مرور لتسلم مراكز الدولة العليا وتصير الكفاءة والخبرة الى المحل الثاني . كما تضعف الرقابة الشعبية والسياسية الى اقصى حـــد لان جهاز هذه الرقابة يصبح هو الخصم والحكم . بالاضافة الى هذا ، فان السلطة التنفيذية تكتسب مكانة مترفعة ومتعالية لانها تضيف الىنفسها امجاد الحزب الثورية وماضيه السياسي المحاط بجو من البطولات الاسطورية . لهذا يصبح توجيه النقد الى الحكومة تهجما على الثورة وعلى اسماء احيطت بما يشبه القداسة . وهكذا يتحول الجهاز التنفيذي للسلطة من اداة شعبية في خدمة اهداف الثورة الى هيئة لها قداسة . كما يصبح الحزب اداة في يد الحكومة . اذ تنتقل خير عناصر القيادة السياسية الي الحكومة لتباشر مهاما تنفيذية وتفقد هي ـ وبالتالي التنظيم السياسي ـ فرصة وقـــدرة القيـــادة الشعبية . وينتهي التنظيم الى كونه مجرد احد الاجهزة الوظيفية للحكومة . الم نسمع كثيرا عن احزاب تقدمية وثورية تحولت في النهاية الى اجهزة تطبيل وتزمير للسلطة والى اجهزة بوليسية تخنق كل مبادرة شعبية؟

ثم تأتي الخطوة الاخيرة عندما تخلق الاجهزة التنفيذية نوعا من الاستقلال الخاص بها ، وتمنح نفسها شيئا فشيئا امتيازات الطبقات المستغلة ، وتقف عائقا في وجه اي تغيير من شانه ان يضعف سلطانها

ـ التتمة على الصفحة ٦٢ ـ

تتمة الثورة والانموذج الجديد

او يحرمها من الامتيازات التي تتمتع بها . اذا ، ما هو دور التنظيم السياسي ؟ ان دوره ينلخص قبل الانتصار في تعبئة الجماهير للثورة وقيادتها الى النصر ، واختيار اللحظة المناسبة للثورة . اما بعد الانتصار فدور التنظيم هو حشد الطاقات الشعبية للقيام بالبناء الداخلي وانشاء اجهزة تنفيذية . وفي كلا الحالتين يعمل التنظيم من اجل رفع المستوى السياسي للجماهير وافساح المجال للديمقراطية .

واذا كان العنف في كثير من الاحيان هو اللغة التي تستعمل مع اعداء الشعب كان الاقناع والتعليم من خلال التجربة همـــا الوسيلتان لكسب الشعب قبل الثورة وبعدها . فاعضاء التنظيم المشتركون في احدى النقابات مثلا عليهم ان يقنعوا اعضاء النقابة بصحة سياسة التنظيم واكتساب خير العناصر واكثرها اخلاصا للتنظيم دون ان يشترطوا كون قادة النقابة من اعضاء التنظيم بالضرورة . كما يجب افساح الصدر لكل معارضة او نقد .

وهذا امر شديد الصعوبة ، كما أن الدوافع الى تجنبه كثيرة . منها اعتقاد اعضاء التنظيم انهم احق من غيرهم بالسلطة لانهم بذلوا جهودا وتضحيات لم يبذلها الاخرون . ومنها كذلك نشوء وهم انهم دائما على حق ما داموا قد انتصروا وبرهنت الايام على صحة مواقفهم وسياستهم . وهذا يغري بادعاء الوصاية على الشعب . كما أن التنظيم ـ استسهالا للامور ـ قد يلجأ في فرض سياسته باستعمال اساليب القسر لتوفر ادواتها بدلا من الاقناع والتثقيف . كما ان مركزهم المميز وتاريخهم الطويل الحافل بالكفاح والتضحية ، مضافا اليها وسائل القوة التي بين ايديهم تجعلهم قادرين على تشويه موقف كل معارض او منتقد ـ مهما كان باعث اعتراضه او نقده ـ والجائه في النهاية الى ان يصبح اما عدوا كي يسهل مقاومته والقضاء عليه او ان يرغم على الموافقة دون اقتناع .

ان الاغراءات والدوافع للتخلي عن الديموقراطية واللجوء الى الديكتاتورية كثيرة ومتعددة . وهذا ما يسمى بانحراف الثورة .

***

يمكننا ان نلخص ملامح العلاقة بين التنظيم السياسي والحكومة، بناء على ما تقدم ، فيما يلي :

اولا : علاقة التنظيم بالشعب وبكل منظماته واجهزته هي علاقة الاختيار الحر القائم على الاقتناع .

ثانيا : على التنظيم ان يتعلم من الشعب ، ومنح الديموقراطية هي الوسيلة الى ذلك .

ثالثا : على التنظيم السياسي ان يتحاشى الذوبان في جميع الاجهزة الوظيفية وان يحافظ على استقلاله . فلا يكون هدفه تحويل السياسيين الى فنيين ، بل على العكس من ذلك اذ يجب ان يعمل على تثقيف الفنيين وكسبهم الى جانب الثورة .

رابعا : قصر وظيفة الحكومة على تنفيذ المهمات الادارية وادانة كل اتجاه من جانب الحكومة للتعالي على الشعب . فالسلطة التنفيذية هي اداة الثورة لا الثورة نفسها .

وهذا يستدعي تغيير وظيفة الحكومة من اداة قهر طبقي الى جهاز في خدمة الشعب . وهذا بالطبع سيؤدي الى تغيير شكلها وطبيعتها وجعلها تقترب من شكل وطبيعة التنظيمات الجماهيرية كادخال مبدا الانتخاب بشكل تدريجي ، واضعين في الاعتبار ان مسارها النهائي هو تحولها الى هيئة ادارية ونزع كل قوى القمع والقسر منها ـ وهذا بالطبع سيكون بعد زمن بعيد .

ثم تأتي مشكلة كيفية تكوين تنظيم سياسي ما دامت الثورة في الحكم . وهذا يحتاج الى موضوع اخر .

القاهرة — غالب هلسا

أزهار الشلل

وينصب الدجى كالقار في احداقك الظمأى
الى النور
الى ساقين تنطلقان في قوه
الى غيلان في جيكور ينتظر
الى الدنيا التي احببتها غنوه
الى خطوه
وينصب الدجى تيها وابعادا
وانهارا من الشلل
سريرا يكتم البلوى .. واصفادا
وتغمض .. توصد الابواب .. تغلق ايما كوه
فلا نور .. ولا ساقان .. لا غيلان .. لا خطوه
دجى موتى .. يفح كالف ثعبان
دجى موتى .. وقلبك لم يزل يخفق
وارضك عبر هذا الرمل ما زالت فراديس
عرائشها .. جداولها .. اغانيها
بيادرها .. تكاد الريح تذروها
صباياها وما ينسين من ـ ديوانك ـ الكلمه
وارضك تستظل النخل .. كم يشتاقك النخل
وتكتئب الفوانيس
فليل البعد يضنيها
ولا لقيا .

بغداد — عبد الصاحب الموسوي

(١) رافق الشاعر الفقيد السياب في اخر ايامه في المستشفى